طرق تدريس التاريخ بين المناهج التقليدية وتجدد الوسائط المعلوماتية

أ/ شعشوع معمر
جامعة الشلف

– الملخص:

تواجه الجامعة الجزائرية تحديات عصر المعلومة والعولمة، مما يطرح إشكالية تماشي المناهج الدراسية والبرامج مع النظام المعرفي الجديد خاصة بأقسام التاريخ، فبالرغم من الأشواط التي قطعتها في انجاز الدراسات التاريخية وتكوين الطلبة ألا أنها لم ترقى إلى المستوى المطلوب في ظل مجتمع المعرفة، الشيء الذي يتطلب مراجعة السياسة التعليمية والتفتح أكثر على النظام المعلوماتي والانفجار المعرفي العالمي لمواكبة التحولات العالمية في مناهج ووسائل تدريس وتكوين الطلبة، وتبادل الأفكار والخبرات العالمية لتطوير مناهج التدريس والانتقال التدريجي من مرحلة التدريس التقليدي إلى مرحلة التعليم الالكتروني.

– المقدمة:

يشهد العالم اليوم تحولات عميقة في شتى مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بفضل ما أحدثه ثورة تكنولوجيات المعلومات والاتصالات والعولمة، والتي أدت إلى تغيير جذري في أنماط التفكير والتعلم، واهتمت الدول المتقدمة بتطوير جامعاتها وإدخال إصلاحات تتماشى والتحولات التقنية في مجال المعرفة، وإدخال نظم المعلوماتية في حقول الدراسة والبحوث العلمية ، وأصبح الاهتمام منصبا على الجودة في التعليم والإنتاج الفكري، وظهرت جامعات افتراضية تختص في تقديم العلوم والمعارف في كل التخصصات وإتاحة المعرفة للجميع بتقريب المسافات وتجاوز الحدود المكانية والزمنية .

وبالمقابل بقيت الجامعات في الوطن العربي والجزائر على وجه الخصوص متمسكة بالنظام التقليدي، وبعيدة عن عصر المعلومة التي أحدثها ثورة الاتصالات والرقمنة، ومن هذا المنطلق نطرح السؤال التالي: واقع المناهج الدراسية في الجامعة الجزائرية في ظل الانفجار المعرفي، ماهي التحديات التي تواجه أساليب التدريس

بالجامعة الجزائرية وخاصة قسم التاريخ؟ كيف يمكننا التكيف أو الانتقال من مرحلة التلقين التقليدي إلى مرحلة التعليم الإلكتروني والاستفادة من ثمار تكنولوجيا المعلومات؟

1- لمحة عن تطور مناهج التدريس:

تطورت المناهج الدراسية وطرق التلقين بتطور المجتمعات البشرية على مر العصور، وتأثرت منذ القدم بما شهده العالم من تحولات اجتماعية واقتصادية وسياسية، وإدخال إصلاحات تواكب متغيرات المجتمع وأنماط تفكيره.

ففي العهد اليوناني ظهرت بعض المفاهيم التي تتعلق بالتحصيل العلمي، ووضع الفيلسوف سقراط (474-399ق.م) منهج قائم عل الجدل والحوار وتطوير المعارف، ثم تطور هذا المفهوم في عهد أفلاطون وأرسطو وعملوا على تطوير منهج التدريس والبيداغوجية، حتى وان كان هذا المصطلح الأخير سابق لهذا العصر، لكن الهدف الأساسي هو خدمة مآرب وغايات سياسية وأخلاقية للمجتمع اليوناني[2].

وفي العهد الإسلامي كان تلقي العلوم والمعارف يعتمد على قوة الذاكرة وحفظ المعلومات والالتزام بمعاني الأخلاق التي جاء بها الدين الإسلامي، فتنوعت مجالس العلم بتنوع شيوخهم ، فنبغ الكثير من العلماء في الفقه والتفسير والحديث واللغة والتاريخ .

وكان النهج المتبع في تلقين التلاميذ والمريدين يقوم عل النقل والعقل كحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية وأصول الفقه ومتون التفسير، وكذلك الاعتماد على الحوار والمناظرات، وبرزت أسماء لامعة في فن الخطابة والفقه والتفسير في التاريخ والحضارة الإسلامية.

أما المجتمع الغربي في العصور الوسطى فقد كان بعيد كل البعد عن توظيف العقل، وتميز التدريس بطابع النقل إن صح التعبير، ذلك أن سلطة الكنيسة المسيحية كانت تسيطر على عقول الناس، وتلزمهم على طاعة رجال الدين والإيمان بأفكارهم التي نفذت إلى قلوبهم ووجدانهم وعقولهم، ومن ثم فان التدريس كان يهدف إلى خدمة المسيحية وطاعة الرهبان ورجال الدين، وبرز من بينهم القديس أوغستين (S. Augustin) (354-430م) الذي بذل مجهودات لنشر مبادئ المسيحية في المجتمع الغربي[3].

وفي العصر الحديث وما صاحبه من تحولات سياسية واقتصادي واجتماعية على إثر الاكتشافات الجغرافية [4] والتوسع التجاري الأوروبي وبروز الظاهرة الاستعمارية وتراجع القوة السياسية والاقتصادية للدول الإسلامية ، فإن مناهج التدريس الغربية طرأت عليها تغييرات وإصلاحات بعد الاطلاع على حضارة المسلمين، وكانت صرخة المصلح البيداغوجي كومينيوس (Comenius) نهاية القرن السادس عشر ذو النزعة الإنسانية إلى ضرورة تعميم التعليم للجميع ، ومنح الحرية الفردية للفرد لتفجير مواهبه وقدراته وحرية التعبير عن أفكاره ، وفي نفس الوقت دعى إلى وجوب تطوير وسائل التدريس لتلقين التلاميذ والطلبة، على أن يبقى هذا التعليم محافظا على الطابع المسيحي والتمسك بأصالة المجتمع الغربي.

ومع بداية عصر التنوير وما شهده من تحولات عميقة في أنماط التفكير وثورة العقل، أدخلت إصلاحات جذرية على مناهج التدريس وشهدت تطور نوعي في تحصيل المعارف، مع الإشارة هنا انه تمت القطيعة والفصل بين التدريس التقليدي المسيحي والانتقال إلى التدريس الدنيوي القائم على التجربة والملاحظة، ولاقت دعوة الفلاسفة صدى كبير في الثورة على المناهج القديمة وفصل الدين عن الدراسات العلمية.

أما التدريس في المجتمع الإسلامي لم يعرف تطور ملحوظ وبقي محافظ عل طابعه التقليدي عموما، فعلى سبيل المثال هنا أن المغرب الإسلامي انحصر التعليم في الزوايا ولمؤسسات الدينية والمساجد، وبقي التعليم يعتمد على التلقين النقلي وحفظ الأحاديث والمتون أكثر من استخدام العقل.

لكن مع بداية الاحتلال الغربي للعالم العربي والإسلامي، شهدت مناهج التدريس تغيير ملحوظ، شمل الوسائل والبرامج، منذ الحملة الفرنسية على مصر عام 1798، إذ برزت المؤسسات العلمية المدنية والعسكرية، وظهور المطابع والمكتبات والصحافة ودورا لنشر وكلها عوامل ساعدت على تطوير العملية التعليمية في المشرق العر بي لتمتد إلى باقي أقطار العالم العربي في إطار التوسع الاستعماري.

وشهدت المناهج الدراسية في عصر المعلومات ثورة على المناهج التقليدية في الدول المتقدمة، ولاسيما في توظيف تقنيات المعلومات والاتصالات في العملية

التعليمية، مما انعكس ايجابيا في تطوير تكنولوجيات التعليم، وشهدت المجتمعات الغربية تحول سريع ونقلة نوعية في استثمار هذه المعارف وتكوين العنصر البشري.

2- واقع التعليم العالي بالجزائر أمام الرهانات والتحديات:

تشير الدراسات العلمية إلى أن نمط التدريس بالجامعة الجزائرية اليوم لا تتماشى مع التحولات التي يشهدها عصر المعلومات، بل أن الجامعة الجزائرية تعيش أزمة حقيقية كون المؤسسات التعليمية بقيت محافظة على نمط التدريس التقليدي، وغير قادرة على تلبية حاجيات المجتمع والتحديات عصر المعولمة والمعلومات الذي يتميز بتقديم الجودة في التعليم وسرعة الأداء، ويرى البعض أن مجتمع المعلومات الكوني سيقضي على البرامج والمرجعيات الأساسية التي أصبحت جامدة وصلبة[5]، هذا في الوقت الذي نرى فيه الدول المتقدمة تعتمد على نظام المعرفة وتكنولوجيات الرقمنة والتقنيات العالية الجودة[6] في التدريس ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا أين يكمن الخلل، وماهي التحديات والمعوقات التي تواجه التدريس في التعليم العالي؟

الملاحظ أن الجامعة الجزائرية اليوم وعلى غرار الجامعات العربية تشهد نمو متسارع في عدد الهياكل الجامعية وتزايد مفرط لعدد الأقسام والطلبة، ففي كل ولاية بها قطب جامعي أو مركز جامعي تستقطب آلاف الطلبة وفي شتى التخصصات، مما يتطلب مضاعفة عدد الأساتذة والمؤثرين، الشيء لذي أدى عجز في توفير الأساتذة الأكفاء لتغطية العملية التعليمية وجودها، هذا في الوقت الذي بقيت فيه البرامج وأساليب التدريس محافظة على النظام التقليدي.

إن الاعتماد على الكم العددي للهياكل والطلبة انعكس سلبا في التحصيل العلمي للطلبة إذ تشير إحدى الدراسات إلى تدني المستوى الدراسي مقارنة بالمستوى العالمي ، وعدم مواكبة الرقي العلمي والبحوث العالمية كما ونوعا.

ولاشك أن التمسك بالمنهج التقليدي أدى إلى تقييد البحث العلمي وعدم فاعليته، وأصبح هم المتخرجين الحصول على الشهادات على حساب القيمة العلمية للبحوث[7]، وبالتالي فإن تكوين الطالب الجامعي يخضع للتلقين ونقل المعلومات من الأستاذ دون إبداع وتفاعل، فأصبح الطالب مجرد متلقي وناقل للمعلومات، وهو ما

يتناقض مع قواعد التدريس العالمي المعلوماتي القائم على مهارة الطالب وذكاءه وسرعة التفاعل والتعاطي مع التقنيات السريعة في التعلم.

إضافة إلى قلة الإمكانيات ووسائل انجاز البحوث، خاصة مع تزايد عد الطلبة المقبلين على الدراسات العليا وأصبحت المكتبات الجامعية لا تلبي حاجات الطلبة من الكتب وإشباع رغباتهم المعرفية، مما يضاعف من معاناة الطلبة ويؤثر على سلبا على جودة البحوث العلمية وبالتالي تدني مستواهم الدراسي[8].

3- واقع التدريس بأقسام التاريخ وأفاق تطويرها:

تطرح عملية التدريس بأقسام التاريخ بالجامعة الجزائرية وبدرجة متفاوتة العديد من المشاكل والمعوقات، وتبدو متشابهة تقريبا من بين هذه المشاكل:

- قلة المؤطرين من أساتذة أكفاء على تكوين الطلبة فيما بعد التدرج والبحث العلمي، خاصة في ظل العدد المتزايد للطلبة المقبلين على الدراسة في حقل الدراسات التاريخية مع نظام ل.م.د الذي يتطلب السرعة في التكوين والمهارة في الأداء والتحصيل العلمي.
- الاكتظاظ داخل أقسام التدريس مما يصعب على الأستاذ أداء العملية الدراسية، وتقييم البحوث.
- نقص الكتب التاريخية وخاصة المصادر وليست في متناول الطلبة بشكل كافي، مما يصعب على الطالب انجاز بحثه في الآجال المحددة.
- النقص في التزويد بخدمات الانترنت والمواقع البحثية[9].

وبالنظر الى كثرة البرامج الدراسية وتراكم المعارف ، يقترح المختصون مراجعة الخطط والبرامج، حيث يلحون على إدخال إصلاحات على المنظومة التعليمية الجامعية والتعاطي مع الوسائل التقنية الجديدة في تكنولوجيات المعلومات مثل الحاسوب والرقمنة التسهيل عملية الوصول إلى المعلومة وسرعة انجاز البحوث كما ونوعا[10].

ولاشك أن الدراسات التاريخية ومعها طرق التدريس تشهد منافسة شرسة في ظل مؤسسات التعليم العالمية المبنية على نظام المعلوماتية، والتي أنتجت كم هائل من الإنتاج الفكري في الدراسات والبحوث ،فبعدما كان عدد الدوريات لا يتجاوز 1000 دورية عام 1800م، تضاعف بشكل لافت ليصل إلى أكثر من 70

ألف دورية ويتضاعف هذا العدد إلى ما يربو مليون دورية حاليا ، وحوالي 14 مليون وثيقة منشورة ، وسنويا يسوق حوال 600 ألف كتاب[11]، وبالمقابل تقديم تعليم عالي الجودة وسرعة التفاعل مع الأستاذ والمتعلم، ويتطلب ذلك عرض المعلومات في صورة مشكلات تتحدى ذكاء المعلم وتحثه على التفكير[12].

وعليه فان التدريس لم يعد اليوم كما كان عليه في الماضي، وإنما يعتمد على أنماط حديثة وتقنيات أفرزتها ثورة المعلومات، وأضحى التدريس من المهن التي ترتكز على شروط ومواصفات، فيتطلب الإعداد الجيد، وتوظيف تقنية المعلومات والتفاعل مع هذه الوسائل الجديدة، ومتابعة الطلبة وتقويمهم في جميع الجوانب[13].

إذا فلتعليم الالكتروني أصبح ضرورة ملحة وبديلة لتطوير التعليم الجامعي، واستخدام وسائطه المتعددة، من آليات بحث ومكتبات الكترونية، وأوعية الانترنت بغرض إيصال المعلومة بأقل جهد وبسرعة فائقة وفوائد جمة [14]، ويتضمن هذا المفهوم تحويل الصف الدراسي إلى صفوف الكترونية وذكية تتعامل مع الإمكانيات الرقمية والمعلوماتية بسرعة عن طريق استخدام الانترنت والشبكات والوسائط المتعلمين، ويمكن ضبط البرامج ومحتوى الدروس وعدد الطلبة[15].

ومن مزايا هذا التعليم أنه يمكن إيصاله إلى المتعلمين في أي زمان ومكان بأقل التكاليف، وسهولة الحصول على المعلومة ومعالجتها، وخلق جو من التعاون والتنافس وتبادل وجهات النظر وإثراء المعارف، وتوسيع ونشر البحوث والدراسات، ويساهم هذا أيضا في فسح المجال أمام الطلبة للابتكار والتعبير عن أفكارهم بكل حرية، وبالتالي القضاء على حاجز الخوف والقلق والخجل الذي ينتاب بعض الطلبة ويمنعهم من المشاركة داخل الأقسام[16].

- أنواع الوسائط الإلكترونية:

تعددت الوسائط الالكترونية والرقمية لتلقي مختلف المعارف، ومن ابرز هذه الوسائط الحاسوب الآلي وشبكة الانترنت، ومؤتمرات الفيديو، والفيديو التفاعلي، ومراكز التدريب والتعلم الالكتروني، وبرامج الأقمار الصناعية، والأقراص المضغوطة، والمكتبة الالكترونية، والدوريات الالكترونية... الخ[17].

– إدخال تقنية استخدام التاريخ الكمي:

لا شك أن التحولات العميقة التي أحدثتها ثورة المعلومات، كان من ثمارها ومحاسنها تطوير حقول الدراسات التاريخية وتحسين مناهج التدريس، ويشير أحمد عبد الله الحسو أنه بالرغم من أن الدراسات التاريخية التقليدية ساهمت في إثراء تراثنا وحضارتنا على أسس علمية، الا أنها لا ترق إلى المستوى المنشود مادامت في ثوبها التقليدي، ولا تتماشى مع التحولات العالمية في مجال الثورة الرقمية، حيث أن هناك صعوبات جمة تعيق الدراسات التاريخية وكذا النهج الدراسي من بين هذه المعوقات:

– أن هذه الدراسات اعتمدت على المصادر التاريخية التراثية وبنسبة اقل أمام الكم الهائل الذي لا يزال غير محقق.

– صعوبة الحصول على المصادر والمخطوطات المتناثرة زمانيا ومكانيا في عديد من أصقاع العالم الإسلامي والغربي، وخاصة الجزائر التي عرفت مرحلة استعمارية خطيرة أدت الى تشويه تاريخها، ومصادرة تراثها من قبل الاستعمار الفرنسي، وبسبب أيضا الهجرة القصرية للكثير من العلماء، فتركوا أعمالهم ومآثرهم الأدبية والفكرية خارج الديار، ويصعب الوصول أو نقل أعمالهم ووضعها بين أيدي الباحثين والمهتمين.

– يشير الأستاذ أحمد عبد الله الحسو الى مسألة أخرى وهي أن المصادر المطبوعة ليست محققة تحقيقا علميا، مما يجعلها بعيدة عن الحقيقة التاريخية، وبعضها نسب إلى غير مؤلفيها الحقيقيين.

وللارتقاء بالدراسات التاريخية وتطوير المناهج الدراسية نؤيد فكرة الباحث الأستاذ عبد الله الحسو في استخدام آلية البحث في التاريخ الكمي التي اعتمدتها جامعات الدول الغربية منذ سنوات، حيث يشير الى التاريخ الكمي عل أنه وسيلة من "وسائل منهجية فتحت أمام المؤرخين أفاقا واسعة لتطبيق القواعد المتفق عليها في منهج البحث التاريخي"، ولكن هذه الأفاق تمثل في الواقع الاسترداي ثورة في آليات هذا المنهج وفي توفير امكانات كبيرة للاقتراب من الحقبقة التاريخية"[18].

ويشير أن بعض الدول العربية اعتمدت هذا المنهج الإحصائي وتقنيات الحاسوب كقسم التاريخ بجامعة مؤتة بالمملكة الأردنية، وطبق في بعض الدراسات

في إعداد رسائل الماجستير والدكتوراه، وكانت له نتائج طيبة في جودة هذه الأعمال وتسهيل طرق البحث المبنية على تقنية المعلومات[19].

– الخاتمة:

نظرا للتحولات السريعة التي يشهدها العالم اليوم، حان الوقت للنهوض بقطاع التعليم العالي، وإعادة النظر من جديد في المناهج الدراسية وتكييفها مع متطلبات عصر العولمة ونقترح في هذا الصدد ما يلي:

– توسيع مجال استعمال الحاسوب الآلي في أقسام التاريخ، لرقمنة الدراسات التاريخية والكتب والدوريات.

– تدريب الأساتذة والطلبة على استعمال آليات الرقمنة وسائل الاتصال المعلوماتية للتواصل مع جامعات أجنبية وبلدان لتبادل الأفكار والخبرات العلمية.

– اعتماد مكتبة الكترونية على شبكة الانترنت وتوسيع نشر المصادر والمراجع على شبكة الانترنت لتكون في متناول الجميع، وتوفير الجهد وتكلفة التنقل والسفر على الباحثين.

– إدخال بعض التجارب المعلوماتية في حقل الدراسات التاريخية كتجربة المنهج الإحصائي الكمي، حيث يسهل عملية الحصول على المعلومة والمصادر والكتب من أصقاع العالم وسرعة معالجتها وتحليلها وفق تقنية عالية المهارة.

– يمكن التكيف والتعاطي مع تقنية المعلومات باعتماد التعلم المزدوج أي الحفاظ على التعليم التقليدي وفي نفس الوقت الاعتماد على التعليم الالكتروني في الكليات والأقسام، كمرحلة تدريجية وانتقالية في توسيع التعليم الافتراضي والمفتوح خاصة مع تطبيق النظام التعليمي الجديد ل.م.د.

– الهوامش:

[1]– يعرف المنهج العلمي انه مجموعة العمليات العقلية الاستدلالية التي تستخدم لحل مشكلات العلم، وبناء العلم نفسه في مرحلة ما من تاريخه، للمزيد حول هذا الموضوع، أنظر: قاسم عبده قاسم: تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، مطبوعات عين الدراسات وبحوث العلوم الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط1، 2000م، ص94.

[2]– طالب مناد: المنهج البيداغوجي والعولمة، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 02، العدد11، سنة 2009، ص188.

[3]– المرجع السابق، ص189.

[4]– جمال حمدان: استراتيجية الاستعمار والتحرير، ط1، دار الشروق، بيروت، ط1، 1983م، ص51.

[5]– بلحسين حواء: الجامعة في التحولات العالمية دراسة ميدانية لتصورات الطلبة والمدرسين، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 10، سنة 2008، ص176.

[6]– الجودة في اللغة حسب المعجم الوسيط تعني كون الشيء جيد، والجيد نقيض الرديء، أما اصطلاحا نعني بها فلسفة ذات أدوات وعمليات التطبيق العملي ترمي إلى تحقيق التحسن المستمر، يقوم بها كل العاملين في التنظيم المدرسي، للمزيد أنظر: بلقاسم بن روان، إدارة الجودة الشاملة في التعليم العالي – بعض الأبعاد التربوية، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد12، سنة 2009، ص118.

[7]– نعيم بن محمد، التعليم العالي في الجزائر، التحديات والرهانات وأساليب التطوير، موقع على الانترنت أيوم 2013/10/25 الساعة 1625، نظام بدف، ص10.

[8]– إبراهيم عبد الله الهجري، التعليم في الوطن العربي أمام التحديات التكنولوجية، كلية العلوم، قسم الفيزياء، جامعة صنعاء، (رسالة ماجستير غير مطبوعة)، ص10.

[9]– عباس نوار كحيط الموسوي، تصنيف معوقات إدارة الجودة الشاملة في التعليم العالي، منشورات كلية الاقتصاد، جامعة واسط، 2009، ص51.

[10]– عبد السلام مصطفى عبد السلام، تطوير مناهج التعليم لتلبية متطلبات التنمية ومواجهة تحديات العولمة، المؤتمر العلمي الاول بكلية التربية النوعية، جامعة المنصورة، مصر أيام 12و13 أفريل 2006.

[11]– عيشوش عاطف، اقتصاد المعلومة، رسالة ماجستير في الاقتصاد والتسيير، جامعة بسكرة، السنة الجامعية 2009/2008، ص116.

[12]– بلقاسم بن روان، المرجع السابق، ص116.

[13]- عبد الحميد حسن عبد الحميد شاهين، مناهج وطرق التدريس، منشورات جامعة الإسكندرية، مصـــر، 2010، ص8.

[14]- عبد اللطيف بن حسين فرج، طرق التدريس في القرن الواحد والعشرين، دار المسيرة للنشـــر والتوزيـــع، الأردن، 2005م، ص19.

[15]- عبد الرحمن الحطيبات ومن معه، المستقبل المنشود لاستراتيجيات تدريس اللغة العربية في ظل ثقافة العولمة، مجلة مؤتة للبحوث وللدراسات، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد السادس والعشرون، العدد الأول، 2011، ص156.

[16]- عبد اللطيف بن حسن فرج، المرجع السابق، ص20.

[17] - عبد الرحمن الحطيبات، المرجع السابق، ص158.

[18]- احمد عبد الله الحسو، الدراسات التاريخية بين الاليات التقليدية وتكنولوجيا المعلومات، مجلة كان التاريخية، السنة السادسة، العدد 20، يونيو 2013، ص22.

[19]- المرجع السابق، ص22.